

سيمياء الكون" ليوري لوتمان، نحو تقديم رؤية نقدية حول الفضاء

أ. غوغتا محمد أمين

المركز الجامعي لبريكت

الملخص بالعربية:

تحاول هذه الورقة البحثية الوقوف على كتاب (سيمياء الكون)، في محاولة لرصد التصورات النقدية التي قدمها (يوري لوتمان)، إن تطبيقاً وإن تنظيراً، سواء في اشتغاله على الفضاء في النصوص الأدبية، أو في طرحه لمجموعة من الرؤى النظرية الصادرة عن تجربته القرائية لمختلف الكتابات الإبداعية وعن مساره البحثي.

الكلمات المفتاحية: سيمياء الكون/ يوري لوتمان/ السيمياء/ الفضاء/ الفضاء الرمزي/ الفضاء السيميوطيقي/ الرؤية النقدية.

الملخص بالإنجليزية:

This research paper stands on the "Semiosphere" book, in order to study the theories given by Yuri LOTMAN whether the theoretical or practical ones. Both when he worked on the "space" theme in his literal texts or when he setted up a perceptions that were based on his experience in different creative writings also his research career.

Key words:

Semiosphere/ Yuri LOTMAN/ semiotic/ space/ Symbolic space/ semiotic space/ critical vision.

تقديم:

يعد الفضاء أحد المكونات المساهمة في تشكيل البناء الفني والفكري للنص الأدبي، باعتباره مُعطى يختزن حمولات سوسيوثقافية تعكس على نحو مضمّر رؤى وتصورات المبدع، مما يجعله بؤرة من البؤر الأساسية التي تستقطب تركيز القارئ أثناء محاولته فك الشفرات الجمالية للقبض على المعنى.

إن القبض على المعنى في ضوء سياق مخصوص متعلق بالفضاء يتطلب توفر تراكم معرفي يتيح إمكانية انتقاء الدلالة الأقرب من الصحة، بحيث تكون المقاربة منطقية ومبنية على أحكام عقلية، مما يجعلها أكثر موضوعية وتحرّر للروح العلمية. تنوعت الدراسات التي اشتغلت على الفضاء من حيث حيثياتها وطبيعتها، بحسب مرجعية كل دارس الفلسفة والفكرية، فتعددت بذلك المصطلحات والمفاهيم والمقاربات.

ويعد السيميائي الروسي (يوري لوتمان*) أحد الدارسين الذين تناولوا في مساهمهم البحثي الفضاء كـمكون ثقافي ونصي، في محاولة لتقديم رؤية نقدية نظرية وتطبيقية متجددة في مجال السيميائيات.

تحاول هذه الورقة البحثية الوقوف على كتاب (سيمياء الكون)، في محاولة لرصد التصورات النقدية التي قدمها (يوري لوتمان)، إن تطبيقاً وإن تنظيراً، سواء في اشتغاله على الفضاء في النصوص الأدبية، أو في طرحه لمجموعة من الرؤى النظرية الصادرة عن تجربته القرائية لمختلف الكتابات الإبداعية وعن مساره البحثي. وفي ضوء هذا المعطى؛ سيكون اشتغالنا متمحوراً حول عنصرين أساسيين يشكلان بؤرة (سيمياء الكون)، أولهما؛ الفضاء كمعطى ثقافي، وهنا، تركيزنا سينصب حول التصورات النظرية التي قدمها لوتمان بشأن الفضاء. وثانيهما؛ الفضاء النصي، وفي هذا العنصر سنركز على التعامل التطبيقي للوتمان مع النصوص الأدبية، من حيث بنيئها الفضائية.

أولاً: الفضاء كمعطى ثقافي (تصورات لوتمان النظرية)

اشتغل (يوري لوتمان) في أجزاء متناثرة من كتابه (سيمياء الكون) على الفضاء باعتباره مكوناً ثقافياً تتقاطع طبيعته وحيثياته مع منظومة من المعطيات والقوانين الكونية. وستناول في هذا الجانب من الدراسة شبكة المعطيات الثقافية التي شكلت مرجعية لوتمان في كتابه، وأهم المفاهيم النظرية التي ركز عليها، في محاولة لتقديمها إلى القارئ في شكل بسيط لا يحتاج إلى كبير عناء لتمثلها واستيعابها. علماً نحقق و لو غاية من غايات التأليف التي ذكرها (ابن حزم الأندلسي) في قوله: "التأليف المستحقة للذكر، والتي تدخل تحت الأقسام السبعة التي لا يؤلف عاقل عالم إلا في أحدها.... وهي: إما شيء لم يسبق إليه يخترعه، أو شيء ناقص يتمه، أو شيء مستغلق يشرحه، أو شيء طويل يختصره دون أن يخل بشيء من معانيه، أو شيء متفرق يجمعه، أو شيء مختلط يرتبه، أو شيء أخطأ فيه مؤلفه يصلحه".

1/ مرجعية لوتمان الثقافية والفكرية في (سيمياء الكون):

استفاد (يوري لوتمان) في طرحه للمفاهيم النظرية من مجموعة من المعطيات الثقافية والفكرية، نذكر من بينها طروحات (ديكارت) و (بيرس) و (فيرناديسكي) و (جاكوبسون) و (دانيال ديفو)، وآراء عصر الأنوار. أفاد (لوتمان) من مفهوم الكون الحيوي لـ (فيرناديسكي) في تحديد مصطلح سيمياء الكون وصياغة تعريف له، وفي طرح مجموعة من الآراء المتمحورة حول الفضاء، من منطلق أن الكون يعد فضاء تسبح داخله الكائنات الحية، وبالتالي لا تحمل الحياة ولا تظهراتها خارج تحومه أي معنى¹.

جاء في بداية الكتاب أن (لوتمان) قد استثمر مصطلح السيميوزيس الذي اقترحه السيميائي الأمريكي (شارل ساندرس بيرس)، فقد صرح أنه أخذ "بعين الاعتبار فعل التواصل في ذاته"²، و"فحص العلاقات التي تتشكل بين المرسل والمرسل إليه"³، مفترضا "أن دراسة هذه الواقعة الوحيدة تعد قادرة على إضاءة الخصائص الأساسية للسيميوزيس"⁴، مشيراً إلى أن هذه المقاربة تعدّ "موافقة للقاعدة الثالثة المقدمة من لدن ديكارت في خطاب المنهج"⁵، وهي إحدى القواعد الأخلاقية المرتبطة بالمنهج، القائمة على أساس ترتيب الأفكار، من البسيطة إلى المركبة.

تُظهر مقاربة (لوتمان) هذه أنه أحد مؤيدي "الممارسة العلمية الملقنة أثناء عصر الأنوار"⁶، القائمة على الفكرة التي طرحها (دانييل ديفو) في روايته (روبنسون كروزو)، والتي مفادها: "عزل موضوع لنجعل منه لاحقاً نموذجاً عاماً"⁷.

تضمن الكتاب مجموعة من المبادئ التي استقاها لوتمان من مختلف المفكرين، نذكر من بينها مبدأ الإثنائية، الذي استفاد منه من خلال دراسات (رومان جاكوبسون)، وغيره من المبادئ التي نجد أن بعضها اقتبسه من الحقل الأدبي والنقدي، والبعض الآخر استورده من مختلف العلوم الكونية، مثل اللاتناظر المستوحى من الرياضيات⁸.

إن مرجعية (لوتمان) الأوروبية-الأمريكية - الصّرفة، تشي بوجود أنساق مضمرة عملت على توجيه لوتمان ثقافياً وفكرياً، تتمثل هذه الأنساق المضمرة في شكل مؤسسات ثقافية وسياسية ودينية وإيدولوجية واجتماعية واقتصادية، تؤدي هذه المؤسسات دوراً فعالاً في توجيه الباحث، إما بوعي منه، وإما دون وعيه. وفي ضوء هذا المعطى؛ يمكن القول أن المؤسسات الغربية، وبخاصة الأوروبية-الأمريكية؛ تسعى إلى تعميم أفكارها وطروحاتها عبر باقي الدول، لتتصدر المركز، ويصبح الهامش تحصيلاً حاصلاً لبقية الدول. وهذا ما يسعى الباحثون العرب إلى إزالته وتحطيم هذه الممارسة الأوروبية-الأمريكية التي تعد مظهراً من مظاهر المدّ الكولونيالي.

2/ مفاهيم نظرية:

تتنوع المصطلحات والمفاهيم النظرية الأساسية التي تَصَنَّفُهَا كتاب (سيمياء الكون) على محورين أساسيين - على حد ما توصلت إليه قراءتنا -، هما: الفضاء السيميوطيقي، والفضاء الرمزي.

أ/ الفضاء السيميوطيقي:

من المتعارف عليه أن السيميوطيقا تناولت "مجموعة من المواضيع بالتفكيك والتركيب، ودراسة الدوال والعلامات والسيميوزيس، بغية بناء المعنى العميق، وتحصيل الدلالة الثابتة وراء السطح، ومن أهم هذه المواضيع: الفعل، والذات، والوجدان، والتوتر، والثقافة، والفضاء، والزمان، والشخصية، والصورة، والإشهار، والأسلوب، والنص، والفن، والتأويل، ووسائل الإعلام...."⁹، لكن ما يهمنا هنا هو الوقوف على الفضاء، باعتباره أحد أسس "حياتنا الثقافية ضمن سيمياء الكون"¹⁰.

سيمياء الكون عند (لوتمان) هي "فضاء سيميوطيقي ضروري لوجود ولاشتغال اللغات المختلفة، وليس بمثابة جماع للغات الموجودة"¹¹، بمعنى أنها فضاء سابق في الوجود على اللغات، وداخل حدوده تشتغل اللغة، ويتم فعل التواصل بكل ما يتعلق به من تمظهرات وحيثيات.

إن غياب الإثنائية واللاتناظر على حد تفكير (لوتمان)؛ لا يضمن تماسك نسق سيميوطيقي معين، فالإثنائية تتحقق "من خلال التعدد، لأن كل لغة كانت حديثاً تعد، بدورها، مقسمة حسب مبدأ إثنائي"¹²، أما اللاتناظر ف"يظهر جلياً في العلاقة بين مركز سيمياء الكون وهامشها"¹³، ففي مركز سيمياء الكون تشتغل اللغات الأكثر تطوراً، سيما اللغة الأولى للثقافة المعنية التي تؤدي دور المنظم، إضافة إلى لغات أخرى تستطيع تأدية الوظائف الثقافية، وهذا ما يجعل بنية سيمياء الكون تبدو لاتناظرية"¹⁴، إذ "يجد اللاتناظر تعبيراً له في اتجاهات الترجمة الداخلية التي تجعل كثافة سيمياء الكون قابلة للاختراق.... ومادامت اللغات المختلفة لسيمياء الكون تعد لا متناظرة سيميوطيقياً بمعنى أنها خيالية من التطابق الدلالي المتبادل، فإن كلية سيمياء الكون يمكن أن يعتبر بمثابة مولد للأخبار"¹⁵ في الثقافة المعنية.

تقسّم الثقافة العالم إلى فضاءين؛ داخلي وخارجي، أما الفضاء الداخلي الخاص بالأننا، المتسم باللاتناظر واللاتجانس، يعد بمثابة وصف ذاتي لسيمياء الكون"¹⁶. وأما "الفضاء الخارجي، الذي يجد الكائن البشري نفسه منغمساً داخله، يعد موضوعاً للعملية السيميائية لكي يصبح عاملاً ثقافياً: إنه مقسم إلى فضاءين. فضاء الموضوعات.... التي تعين شيئاً معيناً (لها دلالة معينة)، وفضاء الموضوعات التي هي ببساطة نفسها، اللغات المختلفة التي تؤثر سيمياء الكون، هذا الحارس بالعيون المتعددة، تولد تمايز هذا الواقع الخارجي"¹⁷. وبالتالي تسهم الصورة البارزة المنبثقة في "سيرورة توحيد سيمياء الكون، وبمساعدة الأداة الميتابنيوية التي تعد خاصة بها، فإنها تحصل على حق الحديث باسم الثقافة في كليتها. في ذات الوقت، البنيات التحتية لسيمياء الكون على الرغم من الفروق بينها، تجد نفسها منظمة في إطار نسق عام من المرجعيات: على طول محور زمني (يتضمن الماضي، الحاضر والمستقبل)، ومحور مكاني (يتضمن الفضاء الداخلي، الفضاء الخارجي والحد بين الاثنين). الواقع اللا-سيميوطيقي بمكانه وزمنه الخاص به يمكن أيضاً أن يكون مسنناً داخل هذا النسق، لكي يكون قابلاً (للسيميائية)، أي قادراً على أن يصبح محتوى لنص سيميوطيقي"¹⁸.

يعتقد (لوتمان) أن "التوصيف الذاتي الميتابنيوي لمركز الثقافة إلى كل الفضاء السيميوطيقي الخاص به، الذي يوحد بالنسبة للمؤرخ كل واحدة من القطاعات السانكرونية لسيمياء الكون، لا يعطي، في الواقع، سوى وهم التوحيد. في مركز الميتابنية، توجد (لغتنا)، ولكن على هامشها، هذه الأخيرة تعالج كما أنها لغة (طرف آخر)، غير قادرة على أن تعكس، بوفاء، الواقع

السيميوطيقى المحدث: كما أن نحوها يعد نحو لغة أجنبية. ينتج عن هذا أنه في مركز الفضاء الثقافي، طبقات سيمياء الكون التي تطمح لأن تبلغ مستوى الوصف الذاتي، تنجح في التنظيم بطريقة جافة وتنظيم ذاتي¹⁹. هذه الطبقات تفقد مع الوقت حيويتها و ديناميكيتها، وبالتالي تنزل مرونتها وتعجز عن التطور، نظرا لاستنفادها كل الإمكانيات في اللاتحديد²⁰.

تعدّ حدود سيمياء الكون إحدى الآليات الأساسية المساهمة في إنجاح سيرورة العملية السيميائية، فهي تتسم بازداجية وتعدد اللغة²¹، إنها تقنية "موجهة لترجمة النصوص من سيميوطيقا أجنبية إلى (لغتنا)، الفضاء الذي يتحول فيه ما هو (خارجي) إلى ما هو (داخلي)، إنه غشاء يحول النصوص الأجنبية إلى حد أن هذه الأخيرة تصبح عناصر مكونة للنسق السيميوطيقى الداخلي لسيمياء الكون، مع الاحتفاظ بخصائصها التي تميزها²²، مما يعني أن الحدّ يعد فضاء انتقال الهامشي إلى المركزي، أو هو الفضاء الحدودي بين الداخل والخارج، مثل مدخل المنزل، فهو الحد الفاصل بين المنزل (الفضاء الداخلي / المركزي) وخارج المنزل (الفضاء الخارجي / الهامشي).

كل المعطيات التي تحاول اختراق الفضاء السيميوطيقى؛ تترصد لها مجموعة من الحدود، تتكفل كل منها بفصل ما هو داخلي عن ما هو خارجي، بحيث تصفي العناصر الخارجية وترجم إلى اللغة المنظمة المعنية، وبهذا تتم بنية الفضاء الخارجي، و تُحوّل معطياته من الهامش (الخارج) إلى المركز (الداخل)²³.

إن هذه السيرورات السيميوطيقية التي تحدث على مستوى سيمياء الكون، لم تكن لتحدث بهذه الكفاءة العالية والتنظيم المحكم لولا وجود آلية الحوار، باعتباره إستراتيجية من الإستراتيجيات التي بفضلها يتقبل الأنا المركزي للآخر الهامشي، فيتحوّل الهامشي إلى مركزي، وتتم المكافحة بين الداخل (المركزي) والخارج (الهامشي) الذي أصبح هو أيضا مركزيا. وبعد هذا المظهر من أرقى مظاهر الحوار الحضاري القائم على مبدأ قبول الآخر، بشرط تفعيل آليات التمحيص والغزلة، لأجل الحفاظ على خصوصية الثقافة المعنية.

هذا الحوار إن كان خاليا من الاختلافات السيميوطيقية كما يرى (لوتمان)، "لا مبرر لوجوده، وحين يكون الاختلاف مطلقا إلى حدّ أن المشاركين يلغون بعضهم البعض، فإن الحوار يكون مستحيلا"²⁴.

من خلال جملة الاختلافات المصاحبة للبنيات السيميوطيقية (اللغات) المستعملة من قبل المشاركين في الحوار، و مجموعة الاتجاهات التناوبية التي يسلكها تدفق الإرساليات؛ يُدرّك اللاتناظر المفترض توفره في الحوار.²⁵

إنّ تطرّق (لوتمان) إلى الاتجاهات التناوبية "يشير إلى أن المشاركين في حوار ما، يتحولون، بالتناوب، من وضعية (البث) إلى وضعية (التلقي)، وأن الخبر يتداول وفق قطائع لا متصلة منفصلة بمسافات"²⁶، وهذا يستدعي بالضرورة "الانخراط المتبادل للمشاركين في التواصل وقدرتهما على تجاوز الحواجز السيميوطيقية التي لا يمكن تجنب انبثاقها"²⁷. إن سيرورة تلقي الأخبار تتبع المراحل الأربع الآتية²⁸:

- 1/ تقوم هذه المرحلة الأولى على إقامة قطيعة معرفية مع الماضي وقبول الجديد، فالنصوص الخارجية الوافدة من ثقافة أجنبية، تُستقبل باللغة الطبيعية السيميوطيقية للثقافة المستقبلة بكيفية تضمن لها موقعا متقدما في سلم القيم.
- 2/ في هذه المرحلة يُعاد بناء الروابط بين القديم والوافد الجديد.
- 3/ في المرحلة الثالثة، تبدأ في التشكّل نزعته تسعى إلى إثبات أن الثقافة الأصلية للنصوص المستوردة؛ هي الثقافة المستقبلة.
- 4/ في المرحلة الرابعة، تتم عملية ذوبان النصوص المستوردة داخل الثقافة المستقبلة.

15/ في المرحلة الخامسة، تصبح الثقافة المتلقية المشكّلة للمركز العام لسيمياء الكون ناقلة للأخبار، ومنتجة للكثير من النصوص التي توجه نحو فضاءات تتموضع على مستوى هامش سيمياء الكون.

يقرّر (لوتمان) نفسه أن هذه السيورة يمكن أن لا تُحقق بشكل كلي، لأنها تقتضي توفر شروط "تاريخية، اجتماعية ونفسية مساعدة. سيورة (التلوّث) تفرض، لتزى النور، بعض الشروط الخارجية الملائمة، ويجب أن يتم الإحساس بها بصفاتها ضرورية ومرغوبا فيها، كما أنه في كل حوار، وضعية الجذب المتبادل يجب أن تسبق التواصل الواقعي"²⁹.

إن "البشرية وهي غارقة في فضاءها الثقافي، تخلق دوما حول ذاتها دائرة مكانية منظمة. هذه الدائرة تشمل من جهة تمثلات ايدولوجية وتمثلات سيميوطيقية، ومن جهة أخرى، النشاط الإبداعي البشري، مادام أن العالم المبدع اصطناعيا بواسطة الإنسان (الفلاحي، المعماري والتكنولوجي) يعد مطابقا لهذه النماذج السيميوطيقية"³⁰.

تكمن أهمية النماذج المكانية التي خلقتها الثقافة في كونها "بنيت ليس على أساس لغوي ومنقطع، ولكن على أساس استمرارية أيقونية. قواعدا الأساسية هي نصوص أيقونية يمكن أن تدرك بصريا، وتحويلها إلى نص لفظي يعد ثانويا"³¹، مما يعني أن مختلف الصور الكونية تُرسّم أو تُنحِت أو تُنقش أفضل من أن يعبر عنها لفظيا.

ب/ الفضاء الرمزي:

كل فضاء جغرافي في النصوص الأدبية إلا ويحمل دلالة رمزية معينة، بحسب الثقافة التي ينتمي إليها النص. ففي العصور الوسطى، انصهرت مفاهيم القيمتين الأخلاقية والمكانية؛ بحيث اكتسب المكان معنى أخلاقيا، واكتسب المفهوم الأخلاقي معنى مكانيا، ومن ثم انعكس الوضع الثقافي والفكري الوسيط على الكتابات الإبداعية، وأصبح الفضاء فيها يحيل على دلالة دينية وأخلاقية³².

لم تكن الجغرافيا في العصور الوسطى "تعالج مثل تخصص علمي، ولكن بصفاتها فرعا للأوطوبيا الدينية. هذه الطريقة في الرؤية يوافقها موقف خاص تجاه السفر والمسافر: السفر الطويل يجعل المسافر كثر قداسة، وبشكل متزامن، الطريق المفضي إلى القداسة يتضمن ضرورة فكرة التحلي عن حياة الرفاهية والإقبال على السفر. التحرر من الآثام يعني السفر بعيدا، يعني التحرك داخل الفضاء، هكذا فإن الذهاب إلى الدير، كان يمثل انتقالا من مكان الإثم إلى مكان القداسة؛ إنه يتشابه مع رحلة حج و مع الموت، لأن الموت نفسها كانت تعتبر مثل انتقال داخل الفضاء"³³.

توجد صلة وثيقة في أدب العصور الوسطى كما يرى (لوتمان) "بين درجة الطيبوية والمناخ: الجنة تعد بخاصة خصبة ومناخها يعد مواتيا للكائن البشري على العكس من الجحيم. في الجنة تعد الأرض خصبة وكل شيء ينبت بوفرة، في حين أن المناخ في الجحيم يجعل كل شكل للحياة مستحيلا، إنها أرض من الجليد ومن النار.... التمثل الوسيط للفضاء يغطي أيضا مفهوم الانتقاء، الذي ينحدر عضويا من تقسيم العالم إلى بقاع فاضلة ومذنبه. هذا التصوّر الذي ينبع من نزعة خاصة بمجتمعات العصور الوسطى، وهي الانغلاق على نفسها في بعض مراحل تطورها، ترك بصماته على المفاهيم الفضائية. التقابل (أنا/ الآخرون) آل إلى أن يعتبر مثل فرع من التقابلات (فاضل/ مذنب)، (طيب/ خبيث)³⁴، فالأنا دائما مركزية حيّة سمحة، والآخر هامشي سيء".

يعد المسكن أحد التيمات الكونية في الأدب العالمي، فهو فضاء حيوي يحيل على دلالات تتنوع بتنوع المعطى الثقافي الذي أنتج في ظله، ف"في شعر بوشكين لسنوات 1830/1825، تيمة المسكن تتمظهر مثل نقطة للتجذير بالنسبة لأفكاره المرتبطة بالتقاليد الثقافية، بالتاريخ، بالإنسانية وباستقلال الذات الإنسانية. هذه التيمة تم تطويرها عند كوكول، من أجل

تحقيق ميلاد، من جهة، التقابل المسكن/ اللامسكن ومن جهة أخرى، تقابل المسكن بصفته فضاء للإنسانية وللانطواء الذاتي، ضد اللامسكن، الطريق التي تسند لها قيمة عالية³⁵.

تعد المدينة فضاء جغرافيا يتضمن قيما إنسانية ولاإنسانية لها وزن وحمولة على مستوى الراهن، مما جعلها تأخذ "موقعا مهما داخل النسق الرمزي لثقافة ما"³⁶. ويمكن أن يُقسّم هذا النسق الرمزي للمدينة " إلى منطقتين مركبتين: منطقة المدينة مثل فضاء رمزي ومنطقة المدينة مثل اسم رمزي"³⁷.

يؤمن (لوتمان) بسبيلان فقط "يسمحان لمدينة ما، يتم اعتبارها مثل فضاء خاص، أن تدخل في علاقة مع المجال الذي يحيط بها: المدينة يمكن أن تكون متماثلة مع الدولة لكنها تجسدها أيضا، تكون هي، بمعنى مثالي (روما، المدينة هي أيضا روما، العالم)، لكنها يجب أن تكون أيضا مناقضة للعالم المجاور. أيريس وأوريس تيراروم يمكن أن ينظر إليهم مثل عناصر متنافسة"³⁸. وفي إطار " هذه العلاقة بالعالم المجاور، مدينة ما يمكن أن تكون مشابهة لكنيسة واقعة في قلب مدينة؛ بتعبير آخر، النموذج المؤمل يجد نفسه قائما في مركز الأرض. أو بالأحرى، كيفما كان المكان الذي تقع فيه، تعتبر المدينة مثل المركز. القدس، روما، موسكو، تم التعامل معها كلها بصفاتها مراكز لعالمها. بصفاتها تجسيدا مثاليا لبلدها، تعد المدينة، بشكل متزامن، تمثيلا للمدينة السماوية ومكانا مقدسا"³⁹.

إنّ "الوضعية التركيبية للمدينة داخل الفضاء السيميوطيقي تعد مقترنة بانتظام مع صورة المدينة الواقعة على تل (أو على تلال). هذه المدينة هي الوسيط بين الأرض والسماء، النقطة المرجعية بالنسبة للأساطير التي لها علاقة بالأصول (وقد لعبت الآلهة في ذلك، دوما، دورا تأسيسيا)، إنها تعرف بداية، ولكنها لا تعرف نهاية، إنها المدينة الخالدة، روما الخالدة"⁴⁰.

ثانيا: الفضاء النصي (خطاب لوتمان التحليلي)

قارب (لوتمان) في (سيمياء الكون) مجموعة من النصوص الأدبية، محاولا الاستفادة من المعطيات النظرية التي أسس لها فكريا وفلسفيا، والاشتغال بها من أجل فك شفرات الفضاء في تلك الكتابات الإبداعية قيد الدراسة.

لكن الملاحظ على هذه المقاربات التطبيقية أنها أتت كلّها وصفية، بعيدة كل البعد عن النزعة التوجيهية الصارمة، وهذا ما يجعلها -في نظرنا- تبتعد عن الهدف الأسمى للنقد، والمتمثل في دفع عجلة الأدب إلى الأمام، من خلال توجيه الأدباء والإحالة على الهفوات التي وقعوا فيها. لذلك؛ كان يحسن بـ(لوتمان) أن يزاوج بين الوصف وبين النزعة التوجيهية الصارمة التي تهدف إلى الارتقاء بالإبداع الأدبي.

تتمحور الخطاب التحليلي (اللوتماني) في (سيمياء الكون) حول الفضاء، بصفته مكوّنا يحمل دلالة ما، بحسب الثقافة التي ينتمي إليها السياق الذي أتى الفضاء في ظله. ويُعد محور الفضاءات المتقابلة أبرز المحاور التي قارب لوتمان في ضوءها الفضاء.

1/ الفضاءات المتقابلة:

انبتت مقاربات (لوتمان) التطبيقية في (سيمياء الكون) -غالبا- على محور التقابل، باعتباره مبدأ من المبادئ التي سجّلت حضورا قويا في النصوص الإبداعية التي كوّنت عيّنة الدراسة.

أ/ الفضاء المقدّس/ المدنّس:

قدّم (لوتمان) في (سيمياء الكون) قراءات تحليلية لبعض الأفضية في مجموعة من النصوص الفنية، على أساس أنها أفضية مقدّسة أو مدنّسة من الناحية الدينية، ومن ذلك قوله معلقا على ما جاء في (الكوميديا الإلهية) لـ(دانتي) أثناء حديثه عن اللجنة والحكيم:

" هذه المفاهيم تظهر بكل وضوح في رسالة الأسقف بازيل إلى الأسقف فيودور. نجد فيها التأكيد على أن (الجنة في الشرق، في عدن)..... الجحيم يوجد في الغرب.... باتفاق مع هذه الأفكار، رجل العصور الوسطى كان يعتبر السفر داخل الفضاء الجغرافي مثل انتقال، بالمعنى الديني والأخلاقي للكلمة: البلدان كانت تصنف مثل بلدان بدع، وثنية أو بلدان قداسة"⁴¹. انبنى هذا التحليل النقدي الذي اتخذ اللغة مدخلا له من أجل كشف مجريات السياق؛ على ثنائية (التقديس والتدنيس)، التي تحتزن محاولات أخلاقية ودينية تتضمنها أفضية الجنة والجحيم.

وفي معرض مقارنة لوتمان للأفضية المقدسة والمدنسة المتقابلة، يقول معلّقا على مقطع من إحدى النصوص الإبداعية الهندية: "نجد في أدب العصور الوسطى ترابطا وثيقا بين درجة الطيبوية والمناخ: الجنة تعد بخاصة خصبة ومناخها يعد مواتيا للكائن البشري على العكس من الجحيم. في الجنة تعد الأرض خصبة وكل شيء ينبت بوفرة، في حين أن المناخ في الجحيم يجعل كل شكل للحياة مستحيلا، إنها أرض من الجليد ومن النار"⁴².

إن تمثل الفضاء في كتابات العصور الوسطى الإبداعية يغطّي "مفهوم الاتقاء، الذي ينحدر عضويا من تقسيم العالم إلى بقاع فاضلة ومذنبه. هذا التصور الذي ينبع من نزعة خاصة بمجتمعات العصور الوسطى، وهي الإنغلاق على نفسها في بعض مراحل تطورها، ترك بصماته على المفاهيم الفضائية. التقابل (أنا/ الآخرون) آل إلى أن يعتبر مثل فرع من التقابلات (فاضل/ مذنب)، (طيب/ خبيث)"⁴³.

تُحسب لـ(لوتمان) قراءاته التحليلية الواصفة هذه، لكن يُحسب عليه ابتعاده الكلّي عن إصدار أحكام قيمية، من شأنها أن تُثمن التّموذج السليم للأفضية في النصوص الإبداعية فتحفّز المبدع إن كان على قيد الحياة، وتُعرّف الأديب الناشئ على مواطن الجودة ليستفيد منها. وأن تبين التّموذج السيء للأفضية فيتجنّب مستقبلها صاحبها إن كُتبت له الحياة، ويتفاداه كذلك المقبلون على الكتابة.

ب/ الفضاء العلوي/ السفلي:

سعى (لوتمان) إلى تقديم قراءة نقدية واصفة للمفاهيم (أعلى) و(أسفل) داخل مجموعة من النصوص التي عاجلها، مثلما يظهر في مقارنته للكوميديا الإلهية لدانتي، ف"المحور (أعلى/ أسفل) ينظم المعمار الدلالي الكلي للنص، كل الأجزاء وأناشيد الكوميديا لها إحداثيات خاصة على هذا المحور المرجعي. نتيجة لذلك، فإن التحولات التي تمت داخل نص دانتي هي دائما عمليات هبوط أو صعود. هذه المفاهيم نفسها لها دلالة رمزية: وراء عمليات الهبوط والصعود الواقعية، يمكن أن نستشف الهبوط أو الصعود الروحيين. كل الخطايا، التي ينظمها دانتي داخل سلمية صارمة، لها نقطة تحذير فضائي، بحيث أن ثقل خطيئة يوافق المستوى العميق الذي يوجد فيه المذنب"⁴⁴. لكن يبقى غياب الحكم القيمي والنزعة التوجيهية يجعل القارئ يتساءل عن الهدف الأسمى للناقد، فضلا عن التنظير والكشف عن الجماليات.

وعلى نفس شاكلة الطرح الوصفي الصّرف الخالي من التقييم؛ يرى لوتمان أن النسق الفيتاغوري للتقابلات قد أثر "في دانتي، وخاصة التقابل بين الخط المستقيم الذي يعتبر مساويا للخير، والمنحني الذي يعد موازيا للشر. انتقال امذنبين داخل الجحيم يتكون من منحنيات دائرية مغلقة، في حين أن دانتي ينتقل من طول لولبية صاعدة تتحوّل لاحقا إلى مستقيم عمودي. غير أنه بطبيعة الحال، فردانية دانتي تنفصل داخل السياق الفيتاغوري: النقطة المرجعية الفضائية والأخلاقية -الدينية لا تمثل عند دانتي مركز الدائرة ولكن قمة المحور أعلى/ أسفل"⁴⁵. مما يعني أن التقابل (أعلى/ أسفل) هو بؤرة التقابلات التي تركز عليها (الكوميديا الإلهية) بحسب ما توصّل إليه صاحب (سيمياء الكون).

ج/ المسكن/ اللامسكن:

يشكّل تقابل (المسكن/ اللامسكن) أبرز التقابلات التي انبنى عليها الخطاب اللوتماني التحليلي لـ(السيدوماركوريت)، ويعود ذلك إلى الحضور القوي لتلك الثنائية الضدية عند الروسي (بولكاكوف) في روايته.

المسكن هو "ركننا في العالم. انه، كما قيل مرارا، كوننا الأول، كون حقيقي بكل ما للكلمة من معنى"⁴⁶، وهذا ما أكد عليه (لوتمان) أثناء مقارنته للمسكن في السيدوماركوريت بعدّه إياه "فضاء داخليا، مغلقا، مصدرا للأمن، للتناغم وللإبداعية"⁴⁷، في حين تغيب في اللامسكن شروط الرفاهية المتوفرة داخل المسكن الذي يمثل "مركز القيم الروحية التي يتم التعبير عنها من خلال التجارب الغنية للحياة الخاصة، من خلال الإبداعية والحب. هذه المفاهيم محددة بواسطة بولكاكوف داخل تراتبية مركبة: في الدرك الأسفل توجد المادية الثابتة، وعلى المستوى الأعلى توجد الروحانية المطلقة. الأولى في حاجة إلى فضاء حيوي في حين أن الأخيرة ليست في حاجة إلى مسكن"⁴⁸. فالحياة المادية مقتزنة بالمسكن، في حين أن الحياة الروحانية لا يُشترط فيها توفر المسكن.

لو أن الخطاب التحليلي الواسف هذا صاحبه حكم قيمي وسأيرته نزعة توجيهية لكان أشدّ تأثيرا في القارئ والأديب الناشئ و أكثر نفعا لهما.

خاتمة:

وفي ختام هذه الدراسة التي تمحور الاشتغال فيها حول كتاب (سيمياء الكون) لـ(يوري لوتمان)؛ يمكن إجمال أهم النتائج المتوصل إليها فيما يلي:

1- إن مرجعية (لوتمان) الأوروبية أمريكية، تشي بوجود أنساق مضمرة عملت على توجيه لوتمان ثقافيا وفكريا، تتمثل هذه الأنساق المضمرة في شكل مؤسسات، ثقافية وسياسية ودينية وإيديولوجية واجتماعية واقتصادية، تؤدي هذه المؤسسات دورا فعالا في توجيه الباحث، إما بعوي منه، وإما دون وعي. هذه المؤسسات الأوروبية أمريكية؛ تسعى إلى تعميم أفكارها وطروحاتها عبر باقي الدول، لتتصدر المركز، ويصبح الهامش تحصيليا حاصلا لبقية الدول. مما يمكن اعتبار هذه الممارسة مظهرا من مظاهر المدّ الكولونيالي.

2- انبنى خطاب (لوتمان) التحليلي في مجمله على مبدأ التقابل، نظر للحضور القوي للتقابلات داخل النصوص الإبداعية التي شكلت مدوّنة الدراسة.

3- كانت مقارنة (لوتمان) للنصوص الأدبية مقارنة نسقية، تشتغل على كيان النص اللغوي، ثم تخرج إلى السياق، لتكون بذلك قد تداركت مزالق البنيوية.

4/ أتت مقاربات (لوتمان) التطبيقية كلّها وصفية، بعيدة كل البعد عن النزعة التوجيهية الصارمة، وهذا ما يجعلها —في نظرنا— تبتعد عن الهدف الأسمى للنقد، والمتمثل في دفع عجلة الأدب إلى الأمام، من خلال توجيه الأدباء والإحالة على الهفوات التي وقعوا فيها. لذلك كان يحسن بـ(لوتمان) أن يزوج بين الوصف و بين النزعة التوجيهية الصارمة التي تهدف إلى الارتقاء بالإبداع الأدبي.

هوامش:

- * - يعدّ يوري لوتمان (1922 / 1993) أحد السيميائيين الروس الذين اشتغلوا في ميدان السيميائيات الثقافية والنصية.
- 1 - يوري لوتمان، سيمياء الكون، تر: عبد المجيد نوسي، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 2011، ص07.
- 2 - المرجع نفسه، ص13.
- 3 - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- 4 - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- 5 - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- 6 - المرجع نفسه، ص 14.
- 7 - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- 8 - المرجع نفسه، ص16.
- 9 - جميل حمداوي، سيميوطيقا الثقافة - يوري لوتمان نموذجاً -، موقع الألوكة، 2014/07/09، الموقع الإلكتروني: [/http://www.alukah.net/literature_language/0/7325](http://www.alukah.net/literature_language/0/7325)
- 10 - المرجع نفسه.
- 11 - يوري لوتمان، سيمياء الكون، ص15.
- 12 - المرجع نفسه، ص16.
- 13 - المرجع نفسه، ص 26.
- 14 - المرجع نفسه، ص25.
- 15 - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- 16 - المرجع نفسه، ص 35.
- 17 - المرجع نفسه، ص 40، 41.
- 18 - المرجع نفسه، ص 41.
- 19 - المرجع نفسه، ص41، 42.
- 20 - المرجع نفسه، ص42.
- 21 - المرجع نفسه، ص49.
- 22 - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- 23 - المرجع نفسه، ص56.
- 24 - المرجع نفسه، ص63.
- 25 - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- 26 - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- 27 - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- 28 - المرجع نفسه، ص72-74.
- 29 - المرجع نفسه، ص74.
- 30 - المرجع نفسه، ص217.
- 31 - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- 32 - المرجع نفسه، ص133.
- 33 - المرجع نفسه، ص135.

- 34 - المرجع نفسه، ص 136-138.
- 35 - المرجع نفسه، ص 169، 170.
- 36 - المرجع نفسه، ص 185.
- 37 - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- 38 - المرجع نفسه، ص 186.
- 39 - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- 40 - المرجع نفسه، ص 187.
- 41 - المرجع نفسه، ص 133.
- 42 - المرجع نفسه، ص 136، 137.
- 43 - المرجع نفسه، ص 137، 138.
- 44 - المرجع نفسه، ص 154، 155.
- 45 - المرجع نفسه، ص 159، 160.
- 46 - غاستون باشلار، جماليات المكان، تر: غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، لبنان، ط2، 1984، ص 36.
- 47 - يوري لوتمان، سيمياء الكون، ص 182.
- 48 - المرجع نفسه، ص 178.